

مجموعة تالوس القصصية

تعريب: يوسف قسطة
دار منشورات النفير

All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر أو إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو إلكترونية بهدف بيعها أو المتاجرة بها أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن من الخدمة العربية للكرامة بالإنجيل. يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي، كما يمكنك أن تنسخها لأجل توزيعها مجاناً لتعم الفائدة.

تالوس وقبائل الفاندال الشمالية

الفصل ١

على صخرة شاهقة في جبال الألب, وقف وعل يتأمل شكل رجل يكدح في السير وحيداً على الطريق العسكرية الرومانية, المتعرجة من أسفل فصاعداً. كان كل شيء ساكناً هادئاً والمسافر مستغرقاً في تفكيره, غافلاً عن العينين اللتين تراقبانه من بعيد. الطريق واسعة مرصوفة جيداً مع صعود شديد, ولذلك كنت ترى العرق يتصبب بغزارة منه وهو يسير صاعداً في شمس الربيع الدافئة. تحوّل الوعل وراح يطفر فوق الثلوج, أما الرجل الماشي وحيداً فرفع قربته إلى شفتيه, وبعد أن فرش ثوبه القرمزي جانباً جلس عليه يستريح قليلاً.

لم يكن الرجل الوحيد هذا إلا تالوس الشاب المسيحي الذي كان من مواطني رومية في أوائل الحقبة المسيحية, يوم كان قبول المسيح مخلصاً شخصياً يتطلب جرأة كافية. وحدث أن تالوس كان قد طُرد من بيته إلى غير رجعة إثر اعترافه بمسيحيته. عهد ذلك احتضنته عائلة مسيحية ولكنه عقد العزم على الانطلاق بأسرع ما يمكن للمناداة بالإنجيل إلى شعوب أخرى بعيدة عن رومية. كان يعرف تماماً عواقب مجاهرته بإيمانه ببسوع لأنه كان يعلم ما جرى للعديد من أصدقائه الذين طُرحوا بوحشية طعماً للأسود الجائعة في الساحات الرومانية العامة, بل إن بعضاً منهم أُحرقوا أحياء بالنار.

ولكن على الرغم من الاضطهادات المُرّة, كان عدد المؤمنين المسيحيين يزداد باستمرار, وكان الفضل في ذلك يعود, بنسبة كبيرة, إلى العمل التبشيري الذي قام به شبّان مثل تالوس.

ها هو الآن يسير في طريقه ليكرز بالإنجيل حسب أمر يسوع إلى أتباعه في إنجيل مرقس ١٦: ١٥. فاتجه قاصداً الريف شمالي نهر الدانوب حيث قطنت قبائل الفاندال البربرية المولعة بالحرب.

ما إن بدأ الظلام يسدل ستره في تلك الليلة حتى كان تالوس قد وصل إلى نُزل صغير يقع على جانب الطريق. قرع الباب بشدة وراح ينادي بأعلى صوته: "يا صاحب المنزل, افتح الباب لمسافر متعب جائع". فأجابه صوت خشن من الداخل: "ها أنا آت, آت. لا داعي لأن تكسر الباب". وفتح صاحب النزل الباب, وبعد أن تأمل وجه الشاب ملياً قال: "إن كان في مقدورك أن تدفع كلفة الطعام والمبيت, فأهلاً وسهلاً. وإلا فتابع طريقك أو تمّ خارجاً مع ذلك المهرج الخالي الوفاض الذي تراه هناك".

وإذا برجل, لم يكن تالوس قد شاهده, ينهض من وسط كومة من القش في باحة النزل. قال الرجل: "أنا مهرج أنتغنى بالبطولات. صحيح أنني خالي الوفاض حالياً, ولكنني مستعد أن أدفع أحياناً شجيرة أعلى من الذهب".

وعلق صاحب النزل بقوله: "هه.. هه.. هل أقدر أن أدفع أحياناً شجيرة لجابي الضرائب؟ أو للخبز والطعام الذين ستلتهمهما؟".

فقاطعه تالوس قائلاً: "اسمع يا صاحب النزل, إن بضعة أناشيد سوف تساعدنا على تمضية سهرة ممتعة". ثم التفت إلى المهرج وقال: "تعال يا صديقي وكن ضيفاً علي".

فأجابه العازف المغني مسروراً: "سيدي إن كرمك هذا سيجزى خير جزاء".

وهنا قال صاحب النزل وهو يغيب في الداخل: "أدع من تشاء ما دمت تدفع سلفاً".

وبعد وليمة مشبعة قام الشاب المهرج وأخذ يرقه عن تالوس بأغانيه وألحانه العذبة على قيثارته. وحتى صاحب النزل الضيق الخلق لم يتمالك عن أن يهز رأسه طرباً ويقرع الأرض بقدمه على وقع الأنغام!

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي نهض تالوس واستعد لاستئناف رحلته من جديد. وقرر صديقه الجديد أن يصحبه في الرحلة, ففضى الوقت كله يتكلم ويثرثر دون أن يتيح لتالوس أن يقول ولو كلمة واحدة. قال: "كانت أُمي تحب الموسيقى وهي من أصل يوناني. وقد دعنتني باسم أورفيوس. ولما مات والدي قصدتُ رومية حباً بجمع الثروة. ولكن بما أن الإمبراطور الأبله كان قد وقر للناس "سيركات" مجانية, فما عاد أحد يدفع مالاً ليستمتع إلى مغنّ مسكين. والآن سأجرب حظي مع الجنود الذين يقومون على حراسة الحدود. لقد ترامي إليّ أنهم يدفعون مبلغاً محترماً من المال مقابل الترفيه والترويح عنهم. لا تنس أن عملهم مملّ جداً...".

وتابع يقول: "يبدو أنك لا تتكلم كثيراً. لماذا لا تحدثني شيئاً عن نفسك؟".

"لم تترك لي فرصة لذلك. أنا... اسمع... ما هذه القعقة الآتية من فوق؟".

فصرخ أورفيوس قائلاً: "لقد هلكننا, هلكننا! فلقد حذروني من هذا الأمر ولكنني نسيت".

"إنه تيهور ثلجي" أجاب تالوس لاهتاً.

وهنا صرخ أورفيوس: "إنه إله الجبل. فسيفتلنا لأننا لم نقدّم له ذبيحة صباح هذا اليوم".

فرد عليه تالوس: "يوجد إله واحد لا غير وهو لا يقتل أحداً".

فعاد اورفيوس يقول يائساً: "جميع الآلهة تقتل من لا يرضيها! لقد هلكنا".

أجاب تالوس: "كلا، فأنا لي ملجأ أمان". وأخذ يركض صاعداً في الطريق ويحث صديقه على اللحاق به. هنا كان المهندسون الرومان قد شقوا طريقاً في قلب الجرف الشديد الانحدار وتركوا ما يشبه المظلة فوق الطريق. وبينما كان يركض سأله أورفيوس: "هل إلهك أقوى من إله الجبل هذا؟".

فقال تالوس موضحاً: "إنه كلي القدرة لأنه الإله الحقيقي الوحيد". ثم حث رفيقه قائلاً: "ضع ثقتك فيه واتكل عليه".

وقبل أن يُنهي تالوس كلامه بدأ تيهور ضخم من الثلوج والصخور يتساقط وينهار. فجمد كلاهما في مكانهما بعد أن ألصق كل منهما ظهره بشدة إلى الجرف الصخري. هل ستصمد المظلة في وجه الانهيار؟ أحدث التيهور دويماً هائلاً فوق رأسيهما، ثم سمعا الكتلة المنهارة تفرقع بقوة وهي منحدره إلى الوادي السحيق. ونجا كلاهما!

ولدى شعورهما بالارتياح على نجاتهما بأعجوبة، استأنفا المسير فرحين. ولكن، ما إن وصلا إلى المنعطف التالي في الطريق المعوجة... حتى قال أورفيوس: "الطريق مسدودة، فما العمل؟".

أجابه تالوس: "يقيناً لن نتمكن من العبور فوق هذه الثلوج الرخوة. علينا أن نحاول الدوران حولها".

ولما لم يكن أمامهما اختيار آخر ترك الاثنان الطريق وأخذوا يتسلقان الصخور بصعوبة وبحذر أملاً منهما في إيجاد ممرٍ حول كتلة الثلج والحجارة المتساقطة.

وبعد وقت بدا طويلاً جداً، إذا بأورفيوس الذي كان يلحق بتالوس يسأل: "تالوس! هل المسافة طويلة بعد؟".

"لا ليست طويلة. لقد مضى علينا بعض الوقت ونحن نتسلق وقد أصبحنا قريبين على ما أعتقد".

وأخيراً بلغا القمة. فالتفت أورفيوس إلى تالوس وهتف متعجباً: "يا له من منظر جميل! ولكن أين الطريق؟".

فأشار تالوس بيده قائلاً: "هناك". ولما فعل أدرك أنه كان مخطئاً، فاستدرك قائلاً: "لا بل هناك... أو بالأحرى...".

وهنا اندفع أورفيوس يقول: "الآن قد هلكنا فعلاً، لاسيما وأن الظلام بدأ يخيم علينا".

فأجابه تالوس بكثير من الشك: "أع... أعتقد أن علينا أن نصرف ليلتنا هنا وننتظر حتى طلوع النهار".

وحدث أن وجدا ملجأً بييتان فيه واستعدا لقضاء ليلتهما هناك غير عالمين أن عيوناً شرسة كانت تحقق فيهما من عل.

قال تالوس بشيء من الاعتذار: "يؤسفني أنني لا أستطيع أن أقدم لك سوى خبز وجبن للعشاء".

فرد عليه أورفيوس مسروراً: "إنها لوليمة فاخرة. ما أكثر ما قضيت أياماً لم أكل فيها حتى كسرة خبز".

وفجأة مزّق سكون الليل عواءً قطيع من الذئاب يُجمّد الدم في العروق.

"تالوس، أسمع هذا الصوت؟ ليس عندنا سلاح ولا نار - ولا شيء لنطردها عنا". قال أورفيوس هذا وتصلب جسمه وهو يستقيم في جلسته ليصغي إلى عواء الذئاب.

أجاب تالوس مؤكداً: "بلى، عندنا. هات قيثارتك".

وأسرع قطيع الذئاب نحوهما. وكان لما اقترب أن أورفيوس ضرب أوتار قيثارته بقوة وشرع يغني أغنية جميلة شاركه فيها تالوس. وصوتهما غير الاعتيادي أوقف الذئاب في أماكنها وجعلها تحترار مما سمعت.

فقال أورفيوس مازحاً وهو يحاول إخفاء خوفه: "إنها تبدو شديدة الشبه بنقاد الموسيقى الذين عزفتُ لهم في ماضي حياتي".

فأمسكه تالوس بذراعه وألحّ عليه: "تابع غناءك. لا ترفع عنها تأثير سحرك".

فتذمّر أورفيوس وقال: "لا أستطيع أن أتابع الغناء طويلاً بعد، فلقد بُحّ صوتي".

حسناً فليغنّ كل منا بدوره... ولكن لا توقف العزف".

وأخيراً همس أورفيوس بصوته المبحوح: "إن هذا لا يجدينا نفعاً. فكلما انخفض صوت القيثارة ازدادت الذئاب اقتراباً منا".

علينا أن نحاول طردها عنا. اتبعني".

الفصل ٢

وسار كلاهما على مهل نحو قطيع الذئاب وهما يغنيان ويهتفان ويعزفان على القيثارة. ولما اقتربا منهما تراجعت الوحوش الحذرة إلى الوراء. وتابعا المسير وزادا من سرعتهما شيئاً فشيئاً.

وأخيراً اختفت الذئاب تحت جناح الظلام إلى غير رجعة. وواصل تالوس وأورفيوس المسير ولكن... فجأة عثرا فهبطا من على حافة الجرف. ولما لم يتمكنوا من الإمساك بشيء سقطا في منحدر ثلجي سحيق.

فصرخ تالوس فيما كانا يزدادان سرعة في الهبوط لا يكادان يتنفسان وسط غيوم الثلج المتناثر. وتدحرجا إلى أن بلغا حافة صخر في آخر المنحدر، ومنها سقطا على غير وعي واستقرا أخيراً في كومة عميقة من الثلج تسوقها الرياح.

على مقربة منهما كانت فرقة من الجنود تشتغل كل الليل لفتح الطريق العسكرية التي سدتها الثلوج المنهارة قبل ذلك الوقت بقليل.

قال واحد من الجنود: "سقط شيء ما من على تلك الصخرة، وأعتقد أنني سمعت نداء".

فأجابه الضابط القريب منه: "وأنا كذلك. دعنا نلقي نظرة".

وتركا باقي الجنود وأسرعوا نحو الصخرة. ولما اقتربا من البقعة انحنى الجندي والتقط شيئاً ما من وسط الثلج ثم صاح: "قيثارة! في وسط الثلج. أيمكن أن تكون قد سقطت من ملاك؟".

فنادى الضابط رجاله المتخلفين: "أيها الرجال، هاتوا رفوشكم ومشاعلكم وتعالوا".

ولما وصل الجنود إلى المكان حذّروهم بقوله: "أنقبوا بكل انتباه. فقد يكون أحدهم قد دُفن تحت الثلج".

وبعد وقت قصير رفعوا أورفيوس على ضوء المشعل وسط حيرة الجنود. وهتف واحد منهم متعجباً: "إنه رجل وفوق ذلك إنه عازف متجول".

حسناً أيها الرجال. عودوا إلى الطريق" قال أحد الضباط آمراً.

ولكن أورفيوس، الذي غطّى عينيه من نور المشعل الساطع، اعترض بقوله: "لا، لا. أنقبوا بعد. صديقي مدفون هنا أيضاً".

وسرعان ما ظهر تالوس وتم انتشاره من وسط الثلوج الكثيفة، وما هي إلا لحظات حتى كانوا جالسين يستدفئون حول النار ويرشفون شراباً ساخناً.

ولما التقط أورفيوس قيثارته ليعزف لحناً قال: "لم تُصَب قيثارتي بأية أضرار".

"عليك أن تشكر الآلهة على نجاتك" قال أحد الضباط الواقفين قرب النار مع القادمين الجديدين الملوئين بالأوحال.

فرد عليه تالوس: "أشكرك أنت على انتشارنا. وأشكر الله الحقيقي الوحيد على استجابة صلاتي التي أرشدتكم إلينا".

"يبدو أنك مسيحي" قال جندي آخر برتبة عريف.

فأجابه تالوس بجرأة: "نعم، أنا مسيحي. وهذا هو سبب اجتيازي الجبال. إنني متجه في طريقي شمالاً لأكرز بالمسيح إلى قبائل الفاندال".

فصرخ العريف: "أمجنون أنت؟ لقد خدمت على الحدود ثلاث سنوات وأعرف الفانداليين جيداً. إن أنت ذهبت إليهم فسيسلخون جلدك وأنت حي".

"قادر الله أن يحميني ويحافظ عليّ. ومتى سمعوا كلامه فسيرجعون عن طرقهم الرديئة".

وهنا تدخل الضابط ثانياً وقال: "العريف على حق. فلا تنتظر أن تحرز نجاحاً مع هذه القبائل".

إلا أن تالوس أصرّ: "مع ذلك يجب أن أجرب. المسيح بذل حياته لأجلنا. فهل أفعل ما هو دون ذلك؟".

ردّ العريف وقال: "سيكون حظك كبيراً إن استطعت بلوغ النهر". وأضاف: "منذ مدة والفانداليون يعبرون الدانوب ويغزون هذه المنطقة رغم كل جهودنا وقواتنا العسكرية".

فذكره الضابط ببرود: "قانونياً، كان من واجبنا أن نلقي عليك القبض لاعتراك بمسيحييتك ونرسلك إلى رومية لتطرح إلى الوحوش".

فجمد أورفيوس لا إرادياً في مكانه- فالى أين هو صائر؟ واختلس نظرة إلى ما حوله وبدا وكأنه يفكر بهجوم سريع.

ولكن العريف عاد فطمأن الشباب المذعورين بقوله: "ولكننا لن نفعل، لأننا لسنا ممن يلتذون برؤية الأبرياء يقدمون طعاماً للوحوش المفترسة، فقط لأجل إرضاء الجماهير".

وكان لما أحسّا بالارتياح لنجاتهما المعجزية الثانية واستعادا نشاطهما في ضيافة الحرس الروماني، أنهما استأنفا المسير بالرغم من تحذيرات مضيفيهما.

الفصل ٣

بقيت الطريق أمامهما متعرجة ولكنها أضحت سهلة للسفر، ولاسيما بعد أن خلفا وراءهما الممرات الجبلية الشديدة الانحدار. ووجد الرفيقان نفسيهما ينزلان تدريجياً مرة أخرى ولو أن الطريق أحياناً كانت تصعد صعوداً صعباً من الوهاد العميقة التي كانت تجري إليها سيول الثلوج الذائبة. ولكم كان المنظر المحيط بها جميلاً بمجيء الربيع بنضارته وخضرته وأزهاره البرية في كل جانب. وبعد أسبوع واحد وصلا إلى غابة كثيفة تصل أشجارها العتيقة العالية إلى حافة الطريق. وما إن انعطفا حتى وجدا نفسيهما فجأة أمام مشهد غريب! رأيا على جانب الطريق دُباً مربوطاً إلى شجرة يثدّ بشراسة السلسلة التي كان مقيداً بها، وبالقرب منه شيخاً وفتاة يعاركان رجلاً قوي البنية دفاعاً عن نفسيهما.

وحالما رأيا ورطة الشيخ والفتاة ركض تالوس وأورفيوس بأسرع ما يمكنهما لنجدتهما. ولكن لدى اقترابهما طرح المعتدي الفتاة أرضاً ثم وجه لكمة إلى الشيخ دافعاً به جانباً. فترنّح الشيخ ثم فقد اتزانته، ولما سقط اصطدم رأسه بجذع شجرة. فنهضت الفتاة للحال والتفتت إلى الرجل راجية: "لا تأخذه، أرجوك". فدفعها جانباً واتجه نحو الدب. ولكنه لما فعل شاهد تالوس وأورفيوس مسرعين نحوه فخاف وأطلق ساقيه للريح مختفياً في الغابة. ولما رأت الفتاة تالوس انهارت وراحت تجهش في البكاء.

وفيما كانت تنتحب قالت: "كان يريد أن يسرق بوران ولكنه خاف لدى رؤيته إياكما".

فسألها أورفيوس وهو يشير إلى الشيخ الذي بقي جالساً على الأرض مشدوهاً: "أتقصدان أنه كان يريد خطف ذلك الرجل؟".

فأجابت: "لا، لا. ذاك هو أبي. كان يريد بوران دبنا الراقص". وهنا أحاطت عنق الدب بذراعيها العطوفتين. ولما رأى الدب أن الخطر زال، ربض بهدوء عند أسفل الشجرة.

عندها التفت الرجل الشيخ إلى القادمين الجديدين وقال بشيء من الجهد: "نحن نتجول للترفيه عن الناس. وهذه ابنتي لاني".

ونظر تالوس إلى أورفيوس وهتف: "انظر يا أورفيوس، وهنا لك رفيق - هو الدب".

قالت الفتاة: "تبعنا ذلك الرجل منذ أن كنا في آخر قرية. فقد أراد الحصول على بوران ليصنع من جلده ثوباً له".

وتابع الشيخ: "إنه أجبُن من أن يصطاد دباً برياً. بوران لا يؤذي أحداً، وقد عرف هو ذلك. ولكن وأسفاه لست في سن تساعدني على حماية لاني أو بوران فيما بعد. فلو لم تأتيا مسرعين في الطريق لكان أخذ بوران وربما لاني أيضاً".

وبما أن كلا الفريقين كانا متجهين شمالاً فقد عزمنا على السفر معاً. فسارت لاني وأورفيوس في الطليعة مع بوران وفي أثناء سيرهما كانا يتبادلان الأحاديث.

قالت لاني: "أنا أعزف على المزمارة فيما يرقص بوران". وأضافت: "أنت تحمل قيثارة ولعلك تعزف معنا!".

فقال أورفيوس محتجاً: "ماذا؟ أنا أعزف لدبّ راقص؟ بالحقيقة إن الفكرة عينها تبعث على الاشمئزاز!". وسار رافعاً رأسه عانفاً.

كان تاوس قد استرق السمع إلى الحديث، فقال للشيخ فيما هما سائران ببطء خلفهما: "يبدو أن ابنتك وأورفيوس قد اختلفا في الرأي حول أمر ما".

فأجابه الشيخ عن معرفة وقال: "أرجح أن للأمر علاقة ببوران. إنها تحبه جداً".

الفصل ٤

في الأيام التي تلت كان الرجل والفتاة يصنعان "فرجة" في كل قرية وصلا إليها ويبيطان عند من يستضيفهما في بيته. كانت لاني تعزف على المزمارة فيما يرقص بوران، ثم كان أورفيوس يغني ويعزف على قيثارته وتالوس يتكلم عن يسوع ووعدته بالخلاص إلى الذين يسمعون.

وذات يوم، بينما كانوا يشاهدون لاني وبوران يقومان بدوريهما، قال تالوس لأورفيوس: "يجب أن تقر أن لاني تجتذب جمهوراً أكبر مما تستطيعه أنت وأنا".

فرد عليه أورفيوس: "أف. إن الدب الراقص هو كل ما يفهمه الفلاحون تقريباً".

ولما استعدوا للنوم تلك الليلة في الكوخ الحقير الذي وضعه القرويون تحت تصرفهم، استقام تالوس في فراشه الخشن وراح يتأمل مفكراً لفترة طويلة. ثم قال: "ثمة خطأ في الأمر يا أورفيوس. إن القرويين يتجمعون حين تعزف لاني بمزمارها ويرقص الدب...".

فقاطعته أورفيوس مغتماً: "ثم أتبعهما أنا بالغناء والعزف على القيثارة فيبدأ الجمهور يتفرق".

"صحيح. وما إن أبدأ بالتحدث إليهم عن يسوع حتى لا يبقى سامعاً تقريباً. وهذا يعني أنني لم أوفق في الوصول إلى الناس".

فصار أورفيوس يقول في نفسه: "إنه الدب التافه. كان يجب أن نتركه يُسرق".

"كلا، إن رسالة الله لا تتوقف على دب. إنها غلطتي أنا. فأنا لست أستعمل الكلام المناسب لأحرض الناس على هجر معتقداتهم الوثنية وقبول المسيح".

وبقي تالوس يصلي، طالباً إرشاد الله حتى مطلع الفجر تقريباً، وهو يقول: "أعني يا رب لأوصل رسالة المسيح العجيبة إلى هؤلاء الناس لكي يسمعوا ويعرفوا الحق".

وفي اليوم التالي، لما تابعوا المسير، سار أورفيوس ثانية في المقدمة مع لاني. قال: "عندما نصل إلى أول قرية، هل لك يا لاني أن تسمح لي لتالوس أن يدخل وحده ويكلم الناس قبل أن...". فقاطعه لاني بغضب دون أن تدعه يكمل حديثه، قائلة: "قبل أن يرقص بوران دبّي العزيز ويغطّي على حديثه وغنائك، أليس كذلك؟ إن كليكما تغاران منه!".

"لست منصفة في كلامك يا لاني، وأنت تعلمين ذلك. إن تالوس شاب مُكرّس لإلهه وكل ما يريده هو أن يشرح للناس ما لديه دون أن يلهيهم دب راقص". قال أورفيوس هذا وقد بدا عليه أنه جرح مما قالته لاني. لكن هذه الأخيرة تابعت تقول بغضب:

"وأعتقد أنك تريد أن تغني قبل أن يتلّهّى جمهورك برقص بوران، أليس كذلك؟".

ثم رفعت رأسها بكبرياء وقالت متعجرفة: "حسناً أنا وأبي سنبقي بوران في الغابة. واذهب أنت وتالوس وحدكما إلى القرية. وستجدان أن أحداً لن يسمع لأي منكما. وسترى!".

بعد ذلك سارا صامتتين وكل منهما منهما بأفكاره. ولما وصلا إلى أول قرية رفعا بصرهما وإذا هما أمام مشهد محزن.

"لقد احترقت القرية" صرخ الشيخ، إذ رأى عموداً كثيفاً من السحاب ما زال يرتفع من وسط الخرائب المُدخّنة.

فصرخ أورفيوس مرتعباً: "الفاندال! إذا نحن قرييون من الحدود".

ولما دنوا شاهدوا بعضاً ممن بقوا أحياء يبحثون وسط الأتالِب (الدبش) عما يمكن إيجاده من الأشياء الثمينة التي تركها الناهبون، وواحد منهم رفع نظره فرأى المسافرين.

فنادى زملاءه بحماس: "انظروا، انظروا. لقد جاء طَوطُننا (وثُننا) لينتقم لنا". (كان الطوطم عند الشعوب البدائية رمزاً لعشيرتهم وإلههم).

وقبل أن يتمكن تالوس أو سواه من إيقافهم، أسرع فريق منهم وأمسك الدب وجره بعيداً.

وقال الواحد منهم بعد الآخر:

"سنعيد بناء قرينتنا وهو سيحمينا".

"لا يقدر الرومان أن يحمونا، أما الآن فنحن في أمان".

"إنه روح أسلافنا".

وعبثاً حاولت لاني الوصول إلى دَبِّها لأن الأذرع القوية حالت دون ذلك.

فأخذت تتوسل: "أعيده إليّ. إنه ليس إله- إنه لي. أنا ربيته منذ كان صغيراً".

فصاح بها شيخ بدا أنه زعيم القبيلة: "اصمتي يا امرأة. فالدب لم يَعُدْ لك. ولا يُسمح لإمرأة أن تلمس دباً- فهو مقدس عندنا. ولو لم تأتي به إلينا لكان نصيبك الآن القتل".

الفصل ٥

واقْتِيد بوران إلى قلب الغابة فيما كان المسافرون الأربعة ينظرون بعضهم إلى بعض لا يعلمون ماذا يفعلون. وتوقّف القرويون عن البحث بين الخرائب وتبعوا رفقاءهم تاركين الأربعة يتشاورون معاً يائسين حزاني. فالتفتت لاني بغضب إلى تالوس قائلة: "أعتقد أنك أنت وصديقك العازف مسروران لخسارتي بوران". ولما قالت هذا انهمرت الدموع على وجنتها.

أجاب تالوس: "لا، يا لاني، بل نحن نشعر بالحزن مثلك. وقد حدث الأمر فجأة دون أن نتاح لنا فرصة للتدخل".

فأجابت لاني اليائسة: "كيف سنتمكن من العيش دون النقود القليلة التي كان يجمعها لنا الدبّ الراقص؟".

فقال أورفيوس مؤكداً: "أنا وتالوس سنهتم بأمرك وأمر والدك. أرجوك ألا تبكي".

"بمعمونة الله سأستعيد بوران. فقط انتظروني هنا". قال تالوس هذا وسار في أثر القرويين المسعورين خائفاً من أن يكون الدب المسكين قد قُدِّم ذبيحة لآلهتهم. فأفضت به طريقه إلى بقعة صغيرة لا أشجار فيها حيث وجد الدبّ مربوطاً إلى شجرة وحيدة.

ولدى استلقائه متخفياً من وجه الجمهور الصاحب أخذ تالوس يصلّي: "اللهم، أعني كي أتمكن من الانتقال بهؤلاء الناس من معتقداتهم الوثنية إليك".

ثم اندفع إلى وسط الحلقة التي كان الرجل يرقص ويصيح فيها بحماسة وصاح فيه: "كفّ عن هذا. كف عن هذا".

فذهل الجميع وخيم عليهم الصمت لما قوطعوا بهذا الشكل, مما جعل تالوس يتابع كلامه بجرأة: "هذا الحيوان الأبكم ليس روحاً لأي من الآلهة. وتقديمكم إياه ذبيحة لا يجديكم نفعاً. فأصغوا إليّ لأحدثكم عن الإله الحقيقي الذي يمكنكم الوثوق به".

عندها هجم بغضب الذين كانوا يرقصون حول الدب وأطبقوا على تالوس. قال أحدهم متسائلاً: "من يجسر على الدخول إلى وسط الحلقة المقدسة؟". وصاح آخر مهدداً: "الموت للغريب". لكن إحدى النساء المتفرجات هتفت قائلة: "دعوه يتكلم, دعوه يتكلم. نحن نريد أن نسمع عن إله يمكن الوثوق به".

وتلتها أخرى, تحمل طفلاً خائفاً على ذراعها, قائلة بلهجة لا تتم عن رضى: "إن الآلهة القديمة لم تتمكن من حمايتنا من غزوات الفانداليين. نحن نقدّم لها القرابين ولكنها لا تساعدنا عند الحاجة".

وسيدة أخرى أصغر منها سناً, رفعت صوتها ملحةً: "إن كان ثمة إله أصحّ فنحن نريد أن نعرف عنه".

وهنا تقدمت المرأة الأولى بضع خطوات نحو تالوس وقالت له: "تكلم أيها الغريب. أخبرنا كيف نعيش دون خوف".

فاغتتم تالوس بسرعة فرصة الصمت التي تلت مطالب النساء وطفق يحدثهم عن يسوع المسيح ومحبه لهم. وحثهم على هجر عبادتهم للآلهة كاذبة والالتجاء إلى المسيح- الإله الحي الحقيقي وربّ الكل. كما أخبرهم عن وعد يسوع بالخلاص لكل من يقبله.

ولما انتهى, عاد الجمهور ببطء إلى القرية وكان الجميع يناقشون الرسالة التي سمعوها, ولم ينتبهوا إلى أن تالوس تخلف عنهم فأسرع فحلّ الدب بعد ابتعادهم عنه. مواطن واحد فقط رآه إذ كان مختبئاً وسط الأشجار القريبة من الساحة التي كانوا فيها.

فأخذ المواطن يقول في نفسه: "لقد حرّر الحيوان من قيده ولم تمنعه الآلهة".

وهكذا عاد تالوس بالدب إلى صاحبه. ولكم كان اللقاء رائعاً بين لاني ودبها المدلّل.

ولما وقفوا يراقبونها تعانق بوران مسرورة, قال الشيخ: "لقد أبهجت قلب ابنتي يا تالوس".

فرد تالوس: "وأنا مسرور جداً لأن هؤلاء الناس سمعوا لي". وأضاف أورفيوس: "وأنا أكون سعيداً لو أن لاني يسرها أن تراني مسروراً برويتها".

في تلك الليلة قام الغريب الذي شاهد تالوس سراً يحلّ الدبّ, وركب قاربه المغطى وراح يجذب به عبر نهر الدانوب العريض. وقال في نفسه وهو يفكر بما رآه: "سأفشي أمره إلى زعماء القبيلة". كان هذا الرجل- وهو جاسوس فاندالي- قد سمع ما قاله تالوس فانسلّ تحت جناح الظلام عبر النهر ليطلع جماعته على الأمر.

الفصل ٦

كان الفجر قد بدأ ينبلع حين وطئت قدماه أرض الشاطئ ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام حارس يأمره: "ارفع يديك يا هذا".

"انزل رمحك, فهذا أنا- غرث, ولديّ نبأ هام أطلعك عليه".

وإثر سماع صوت الحارس, أسرع اثنان من الزعماء إلى الشاطئ. قال الأول: "غرث, ما وراءك من أخبار؟".

وعند وصول زميله الذي تبعه راكضاً إلى المكان الذي وقف فيه غرث على الشاطئ, قال هو الآخر مستفسراً: "هل غادر الرومان حصنهم للانتقام من غزونا للقرية؟".

"كلا. فلدي قصة غريبة أرويها لكما. لقد استرقت السمع إلى رجل غريب- روماني اللغة- يخاطب الناجين من القرية أن رومية لا وجود لها فيما بعد- وأن مملكة جديدة عتيدة أن تظهر".

وبعد أن جلسوا حول النار في مكان غير بعيد طُلب إلى غرث أن يروي القصة كاملة إلى جماعة من الكهنة والشيوخ.

قال غرث: "تحدّث الغريب عن إله قدير جديد قضى على سائر الآلهة. ثم أخذ الدبّ الذي كان سيقدم ذبيحة ولم يحدث للغريب شيء".

فاستفسره كاهن مشدوه: "أتجاسر أن يمنع تقديم ذبيحة؟".

وهتف شيخ: "من الضروري استبدال الآلهة القديمة".

ثم تكلم الكاهن فقال: "إن كان هذا صحيحاً فلننتهز فرصة الإفادة منه. غير إنني لا أحب الحديث عن إله جديد".

وتابع الكاهن قوله: "لقد نَصَرْتنا آلهتنا على الرومان وحالت دون غزو فيالقهم لهذا الجانب من النهر. لعلّ هذا الرجل كان يتكلم عن إلهنا الكلي القدرة وينبئ عن فتحنا لرومية".

وهكذا أساء الفانداليون تفسير رسالة تالوس كليا، تلك الرسالة التي كان قد خاطب بها القرويين عبر النهر. فلقد كان تالوس يتحدث عن ملكوت الله ووعده المسيح لأتباعه بالغلبة والانتصار.

بعد هذا تكلم الزعيم الأكبر للفاندال مجيباً الكهنة: "ثمة طريقة واحدة لمعرفة صحة القصة التي يرويها الغريب: تعالوا به إلى هنا لنمتحنه. فإن كانت الحيلة حيلة رومانية بقصد مباغتنا فسرعان ما سنكتشف الأمر".

في هذا الوقت كان تالوس ورفاقه يتابعون سيرهم في اتجاه القلعة الرومانية التي يقوم جنودها على حراسة الحدود. وفي أثناء ارتحالهم عاد أورفيوس إلى السير في الطليعة مع لاني وبوران الدب. وخلفهم على مسافة قريبة كان تالوس والشيخ يسيران معاً ويتبادلان الأحاديث.

قال "وورث" والد لاني: "لقد حَمَلْت أماً جديداً لأولئك القرويين، يا تالوس، أنا أيضاً أو من الآن بيسوع المسيح".

أجابه تالوس: "عن هذا يسرني، يا وورث". وفيما كانا يسيران معاً، أخذ تالوس يشرح له مقاصد الله من وراء خلق الإنسان- كيف أنه قُصد بالإنسان أن يعيش لله ويكرمه ويكون في علاقة معه. ومما قاله: "إن الإنسان أخفق في إكرام الله وسار في طريقه الذاتية عوض ذلك، فكان أن انفصل عن الله ووقع تحت حكم الموت". وتابع قوله: "لهذا جاء يسوع المسيح ابن الله- ليعيش مثلنا، وبعد ذلك يموت عنا. وقد دفع قصاص الموت عن خطايا البشر لكي تكون لمؤمنين به حياة أبدية مع الله".

في هذه الأثناء، عندما وصلوا إلى رأس الحرف في طرف الغابة شاهدوا الحصن الروماني على مرأى منهم.

قالت لاني: "لست أدري ماذا ينتظرنا هناك يا أورفيوس".

فأجابها أورفيوس: "مهما كان الشيء الذي في انتظارنا فإنني آمل يا لاني أن نتشارك فيه معاً".

بعد ربع ساعة وصلوا إلى باب الحصن. ولما أوضحوا أنهم ممن يقومون بألعاب ترفيهية، فتح الجنود الباب وأذنوا لهم بالدخول. ذلك لأنهم سرّوا بمشاهدة من يزيل عنهم رتبة العمل اليومي.

وبينما كان رفاقه يروّحون عن أنفس العسكر، أخذ تالوس يخاطب القائد مستأذناً إياه بزيارة الفانداليين. ولكن لم يكن من السهل إقناع القائد الذي قال بحزم: "لا أستطيع السماح لك باجتياز النهر إلى أرض الفانداليين".

فألحّ تالوس: "ولكن يجب أن أذهب يا سيدي".

أجابه القائد وقد بدت على وجهه آثار السنين والحروب: "كثيرون يتمنون عبور النهر للمتاجرة معهم، ولكننا نكاد ننجو منهم بمعجزة. لذلك لا أقدر أن أضمن سلامتك- بل إنني لا أضمن سلامتك حتى وأنت هنا. إن قبائل الفاندال يعبرون إلينا كلما عنّ على بالهم".

الفصل ٧

في ذلك المساء راح تالوس يتمشّي وحيداً بجانب النهر ويصليّ إلى الله ليساعده على توصيل كلام المسيح إلى الفانداليين. وحدث أن اثنين من الفانداليين كانا قد اختبأ بالقرب منه بين القصب. وفجأة وقفا أمامه وطرحا شبكة مُحكمة التصويب عليه. فحاول تالوس أن يتفادها ويهرب ولكن سبق السيف العذل- فقد وقع في الشرك ولم تزد محاولاتة الأولى إلا تورطاً.

قال أطول الفانداليين بخبث: "لم يسبق لي أن أحكمت الشرك كهذه المرة".

فأجاب الآخر مسروراً- وهو رئيس عصابة وقد ابتهج لمرأى الأسير مُمدداً فوق العشب. قال: "ولا سبق لنا أن التقطنا صيداً مرغوباً فيه كهذا".

وعلماً منه بأن أسريه هما من الفانداليين، لم يحاول تالوس الاستغاثة- على الرغم من الوحشية التي لقيها حين حملاه هو والشبكة معاً على أكتافهما وطرحاه كحزمة واحدة في قارب كان يرسو قريباً منهما. فقد علم أنه سيدخل الآن أرض دون عصيان منه لأمر القائد الروماني!

استقبلهم على الضفة الأخرى جمهور كبير من المحاربين الفانداليين، وكان معظمهم شاهراً سيفه. فحملوا تالوس إلى قريتهم القريبة على ضوء المشاعل. وهناك قدموا له فراشاً خشناً في العراء حيث قضى الليل يتقلب عليه.

في صباح اليوم التالي أخذ تالوس إلى زعيم القرية. ولعب غرث الجاسوس دور المترجم، فابتدأ يقول:

"يريد الزعيم أن يسمع عن هذا الملكوت الذي تنادي به".

فأجاب تالوس بشوق- لاسيما وأنه عرف أنهم لا يقصدون به شراً ولو إلى حين- "سأخبره بسرور عن ملكوت الله".

خلال هذا الوقت لم يترك أورفيوس مكاناً في الحصن الروماني إلا وفتش فيه عن تالوس. وأخيراً قال للانبي: "لم أجدّه في أي مكان. وبالتأكيد لا يمكن أن يكون قد اجتاز النهر في الليل دون أن يطلعنا على الأمر أولاً".

فقالت لانبي بشيء من الشك: "أيعقل أن يكون الرومان قد أسروه ليمنعوه عن العبور. أنا أعلم أن القائد لم يأذن له بذلك".

كانت لانبي وأبوها قد تعلّقا بصديقيهما, وبدا الآن أن الجميع كانوا قلقين بعض الشيء على تالوس.

فردّ وورث من مكان قريب- حيث كان يطعم بوران: "إن كانوا قد فعلوا فلن يعترفوا بالأمر". وأضاف: "لعلّ من الملائم أن تُقابلا القائد نفسه, فقد يكون أكثر عوناً لكما".

وبناء على نصيحة وورث قامت لانبي وأورفيوس بمقابلة القائد الروماني. بيد أن الخبر لم يسرّ الضابط على الإطلاق. فقال غاضباً:

"ماذا؟ إنه مفقود وتتهمني بإخفائه؟".

أجابه أورفيوس معتذراً: "لسنا نتهمك يا سيدي. ولكننا نسألك إن كنت تعرف شيئاً عن مكان وجوده".

فقال القائد بحزم: "لا أعلم. وإن كان قد اجتاز إلى منطقة الفاندال بعكس أوامري فسألني عليه القبض وسأرسله مقيداً بالسلاسل إلى رومية. وستلقيان المصير نفسه إن أنتما ضايقتما نني ثانية".

وما إن فاه بهذه الكلمات حتى طردهما من أمامه فعادا حزنين إلى خيمتهما.

قالت لانبي- وقد ازدادت الآن حيرة وقلقاً على سلامة تالوس: "ليس من المعقول أن يهرب تالوس دون أن يطلعك على مخططاته".

وأورفيوس أيضاً بدأ يحترق في ما إن كان تالوس قد تورّط في مشكلة ما. فقال للانبي لدى رجوعهما إلى أبيها خارج الحصن: "أظنك على صواب. وأعتقد أنه من المستحسن أن تعودتي أنت وأبوك إلى تلك القرية التي أنقذ فيها تالوس دبك. وابقيا هناك إلى أن تصلكما رسالة مني".

وبينما كان تالوس يشرح عبر النهر الأمور المختصة بملكوت الله إلى الزعيم وجماعة من المحاربين, كان غرث يترجم. وفي أثناء الترجمة قال مؤنباً تالوس على سرعته وحماسته: "لا تسرع هكذا, فعليّ أن أترجم كلامك".

وأصغى الفانداليون طويلاً وبكل انتباه. ثم فجأة هبّ الزعيم ورجال حربه واقفين وشرعوا يصيحون ويلوّحون بعنف بأسلحتهم.

وهنا سأل تالوس غرث, وقد أذهلته ردة الفعل, بل أحسّ بارتعاد فرائصه: "ماذا نقلت إليهم عن لساني؟".

ما قلته لي بالضبط- على قدر ما استطعت أن أترجم- إن الذين يتبعونك لن يموتوا وإن جمهوراً كبيراً سينضم إلينا ويدمر رومية و...".

"كفى. كفى. يا إلهي, ماذا فعلت؟". قال تالوس هذا وأخفى وجهه بين يديه, فيما ابتعد عن الجمهور الهائج وهو في حيرة مما يمكن أن يكون قد أثارهم إلى هذا الحد. وقال في نفسه:

"حاولت أن أخبرهم عن قيادة يسوع لهم- عن الحياة الأبدية- وإن الله سيقضي على الشر. ولكنهم أساءوا فهم كلامي كلياً... يا إلهي أرني كيف يمكنني أن أزيل ما أحدثته من ضرر". قال هذا وجلس لوحده, فيما أخذ المحاربون يرقصون حول النار بشكل مسعور, وكانت أصواتهم تتردد في مسعده وهو جالس مستغرق في التفكير. لم يكن تالوس يراقبهم ولكن بدا أنهم يرقصون رقصة الحرب القبلية وسادت حركاتهم وأصواتهم نغمة الانتصار.

ودام الاحتفال وقتاً طويلاً عاد أثناءه تالوس إلى كوخه. وفجأة...! جاء صوت هامس مألوف من الغابة القريبة من الكوخ:

"هست, تالوس! علمتُ أنني سأجدك".

"أورفيوس! كيف وصلت إلى هنا؟".

فأجاب بلهجة المنتصر: "طبعاً, سباحة. نحن اليونانيين, كما تعلم, نصفنا سمك! وهؤلاء الفاندال منهمكون الآن بالصراخ والرقص لدرجة أن الجيش الروماني كله كان ممكناً أن يعبر النهر دون أن يحسوا به".

"كان يجب ألا تخاطر بنفسك, ولو أنني مسرور بأنك فعلت. إنني في ورطة كبيرة".

وشرح تالوس مشكلته لأورفيوس الذي بدا على وجهه التعجب والدهشة. قال: "كان من الضروري أن أكون أكثر حكمة فلا أخبرهم عن المسيح قبل أن أتعرف لغتهم".

أجابه أورفيوس مشاطراً: "لا تلم نفسك يا تالوس. فلناس طريقتهم في تحوير الكلام بما يتفق وخيالهم, بصرف النظر عن اللغة".

وما عادا شاهدا الفانداليين تلك الليلة, مع العلم أن احتفالهم الصاخب بقي يُسمع ساعات طوال. وأوى تالوس وأورفيوس إلى فراشهما وبقيتا يتقلبان طيلة الليل إلى أن نهضا في الصباح الباكر وسرعان ما اكتشف أمر أورفيوس, لدهشة الفانداليين الكبرى. قال أحدهم:

"تعال! يجب أن يكون الغريب واحداً من الجماعة التي ستتنضم إلينا في المعركة. إنها علامة لنا, فالوقت قد حان. فأرسلوا عدائين إلى جميع القبائل لتجتمع هنا مع رجالها المحاربين, وبعد ذلك نزحف إلى رومية".

وفي وقت لاحق, بينما كان تالوس وأورفيوس يتمشيان معاً حول المكان شاهدا المخيم يغلي بالحركة. كان الحدّادون يصنعون ويصلحون الأسلحة بسرعة, وآخرون يشحنون رماحهم ويصنعون رماحاً جديدة, الأمر الذي كتّف عن نواياهم.

"إنهم يُعدّون العدة للحرب. وعلينا أن نوقفهم عند حدّهم يا أورفيوس! يا إلهي علّمني كيف".

فارتأى عليه أورفيوس قائلاً: "دعنا نقابل الزعيم. فسيتسائل عن هويتي وكيفية وصولي إلى هنا. ولعلّ المترجم يستطيع أن ينقل إليه كلامي".

ولكن غرث الفاندالي الوحيد الملمّ بالترجمة, كانت له آراؤه الخاصة فقال للزعيم:

"كنت على حق. فلقد حضر الغريب إلى هنا ليتأكد من استعدادنا للمعركة, وهو يقول أنك ستكون أنت الملك لدى وصولنا إلى رومية".

فأجاب الزعيم بأنانية: "الملك؟ حسناً. قل له أننا مستعدون".

ولكن هاك ما قاله غرث لتالوس وأورفيوس قال: "إن الملك.. أقصد الزعيم يرحب بك أيها الغريب. ويؤكد لك أننا لا نستعد للحرب. كل ما في الأمر أننا نمتحن أسلحتنا. وهو جدّ مهتم بأمر ديانتك أيضاً".

وهكذا وجداً ثانية أنه ليس لهما ما يفعلان سوى التمشي منفردين حول المكان. ولكنهما بدأا يرتابان من جهة غرث فقد كانا موقنين أنه لم يكن يترجم قط ما كان يقوله تالوس.

قال تالوس: "لست ممن يظنون سوءاً في إنسان يا أورفيوس, ولكنني أشعر أن غرث كاذب".

أجاب أورفيوس: "إذاً أنت لاحظت عثرة لسانه! لست أعرف السبب ولكني واثق من أنه لم يكن يقول للزعيم ما قلناه له".

وفيما كان يتحاوران إذا فتاة من السكان الوطنيين تفاجئهما قائلة: "هست، أنا ذاهبة إلى الغابة، فاتبعاني، ولكن لا تدعا أحداً يرتاب من جهتكما".

قال أورفيوس متعجباً: "إنها تتكلم لغتنا".

فأجابه تالوس محذراً: "صه يا أورفيوس، فقد يكون غرث يراقبنا". وبعد أن مضت الفتاة سار كلاهما وراءها بشكل غير انتظامي. ومرّا بين البيوت إلى أن جاء إلى باب المدينة. ولم يعترضهما أحد لأن القبيلة كلها اعتبرتهما نبيين للآلهة، وحتى الحراس حيّوهما وسمحوا لهما بالمرور دون سؤال.

في الغابة وقفت تلك الفتاة في فسحة مغطاة ظليلة.

وتساءل أورفيوس، حين رأيها تقف على مقربة منهما: "ما عساها تريد منا يا ترى؟".

ولما أسرعا وراءها قال تالوس: "سنعرف ذلك فوراً".

وابتدأت الفتاة تقول بشيء من العجلة:

"يجب أن أتكلم بسرعة قبل أن يفتقدني أحد. أنا ابنة قائد مئة روماني وقد أسرني الفاندال منذ عدة سنوات. وإني، من ذلك الحين، أخدم في بيت غرث. لا زلت أذكر لغة طفولتي مع أنني لم أستعملها لوقت طويل".

عند ذلك جلست في ظل شجرة كبيرة في طرف الفسحة، وتابعت تقول:

"كانت أُمي مؤمنة مسيحية وأنا أذكر ذلك جيداً. وقد سألتكما أن تتبعاني لكي أحذركما من أن الموت قتلاً ينتظركما. كل ما قلتماه للزعيم نقله غرث على غير حقيقته. وحالما تجتمع القبائل معاً سيأمر بقتلكما لئلا تُفتضح أكاذيبه. اهربا الآن. فهذه هي فرصتكما الوحيدة. والآن يجب عليّ أن أعود. وداعاً والرب يكون معكم". ولما قالت هذا عادت مسرعة من خلف الغابة دون أن تنظر إلى الوراء.

نظر تالوس وأورفيوس إلى بعضهما محتارين، فيما وقفا وأخذا في المسير على غير هدى.

وقال تالوس كمن يخاطب نفسه: "إذاً ستكون هناك حرب. وأنا المولوم في ذلك لقلّة صبري".

فسأله أورفيوس: "ماذا تقصد؟"، وهو لا يكاد يعي ما يسأل.

قال له تالوس بكآبة: "كان يجب أن أنتظر حتى أتعلم اللغة".

فنصحه أورفيوس بقوله: "كفّ عن لوم ذاتك. دعنا نتمشى قليلاً ونفكر بالأمر".

على الضفة الثانية من النهر, غادرت لاني وأبوها الحصن الروماني وعادا إلى القرية الودودة مع دبهما الراقص. وكان أنّ أهل القرية رحبوا بهما بفرح.

"انظروا, انظروا. لقد عاد الدب" قال أحدهم وهو يشير إلى لاني وأبيها والدب وهم يقتربون.

فصاح أحدهم مبتهجاً: "سنتفرّج الآن قليلاً".

وحياهم الزعيم: "نرحب بعودتكم إلينا. ولكن أين عازف القيثارة والمبشر الذي تكلم عن الله؟".

أجابهُ وورث: "لسنا نعلم, بكل أسف. اختفى كلاهما في أرض الفاندال".

فصرخوا: "ماذا؟ إن هذا الخبر رديء. لقد وصلتنا شائعات بأن الفانداليين يعدّون العدة للحرب".

وعندها أطلعهما الزعيم على خبر غريب. قال: "أحد الفانداليين- واسمه غرث- يُتَوَقَّع أن يعبر النهر الليلية حاملاً كهرباناً. وبما أنه لا يستطيع المتاجرة مباشرة مع الرومان فإنه يوسّطنا لتلك الغاية. وسأستطلع الأخبار".

ولما كان تالوس وأورفيوس يسيران إلى قلب الغابة, كان كل منهما مستغرقاً في التفكير إلى أن قال تالوس أخيراً:

"أعتقد يا أورفيوس أن الله قد زوّدني بالجواب".

فأجاب أورفيوس متلهّفاً: "عظيم. أنا شخصياً لم أستطع التفكير بشيء. فهات ما عندك".

"يجب تحذير الرومان بإطلاعهم على ما يجري. فاعبر النهر سباحة وافعل ذلك بنفسك. وسأحاول أنا أن أجعل تلك الفتاة تترجم كلامي بصدق إلى الزعيم".

فوافق أورفيوس بقوله: "حسناً, سأذهب حالما يحلّ الظلام. ولكنك قد تعرّض نفسك للخطر, أليس كذلك؟".

أجاب تالوس: "ربما, ولكنني سأجعل الفتاة تقوم بالترجمة في غياب غرث".

فأضاف أورفيوس: "وأنا أحذر الرومان من الخطر في حال عدم إصغاء الزعيم إليك".

"إن الله يستجيب صلاتي يا أورفيوس. والزعيم سيسمع الحق و...".

فقاطعته أورفيوس: "أصغ, إني أسمع أصواتاً آتية في هذا الاتجاه. وخير لنا أن نختبئ".

وسرعان ما وجدا مخبأً بين الشجيرات القريبة من الطريق. وازداد ارتفاع الأصوات إلى أن رأيا جمهوراً غفيراً يقترب شيئاً فشيئاً. ولكن يا للغرابة .

قال تالوس متعجباً: "نساء وأولاد , ماذا يفعلون في الغابة؟".

فقال أورفيوس معرباً عن رأيه: "لعلهم ذاهبون إلى حقلهم المقدس ليجمعوا أغصاناً".

فأيد تالوس كلامه, وأضاف هامساً فيما كان الجمهور يجوز مقابل مخبئهم: "أعتقد أنهم سيزينون مذابحهم بالخضرة ويصلون طالبين النصر من آلهتهم. لقد سبق لي أن رأيت غيرهم من الوثنيين يقومون بالعمل نفسه ولم يُجدهم عملهم شيئاً".

فعلّق أورفيوس قائلاً: "أرجح أنه لم يبقَ ولد في القرية إلا وانضم إلى هذا الجمهور. لماذا يحملون يا ترى مشاعل في وضح النهار؟".

أجابته تالوس: "لكي يبعدوا الأرواح الشريرة عن حقلهم المقدس. فلننتبهم حالما يغيبون عن أبصارنا".

وهكذا لما اجتاز الجمهور وأصبح على مسافة بعيدة منهما, سار تالوس وأورفيوس وراءه بحذر لئلا يشاهدهما أحد في الحقل المقدس. كان عدد أولاد الموكب يقارب الخمسين وكل منهم تقريباً يحمل فوق رأسه مشعلاً مكشوفاً. ومع الأولاد سارت بضع النساء, اثنتان منهنّ تقدمتا الموكب فيما سارت الباقيات خلفهما.

الفصل ٨

وعند وصولهم إلى الحقل المقدس, اصطفّ الأولاد عند طرف الأشجار, وقامت النساء بمساعدتهم على ذلك قبل أن دَهَبْنَ إلى العمل. ولكن حدث أن فتاة صغيرة عثرت, وهي تسرع إلى مكانها, بجذر شجرة وسقطت بعنف إلى الأرض. فطار المشعل من يدها واستقر وسط كومة من أوراق الشجر الميتة المتناثرة في أرض الغابة. وفي ثوان معدودات اشتعلت النار في الغابة. وقد ساعدت على ذلك قوة الرياح التي جعلت النار تنتقل من شجرة إلى أخرى. ولم يعد بالإمكان حصر الحريق المنتشر بسرعة هائلة, مما عرض حياة النساء والأولاد للخطر.

ولما رأى تالوس وأورفيوس ما حصل هرعاً إلى الحقل المقدس الذي كان قد أصبح محاطاً بالنيران. وفي الوسط كان الجمهور يرتجف هلعاً ولا يتجاسر على التحرك من مكانه.

ونادى تالوس وأورفيوس وهو يلهث بجانبه: "تلك هي الفتاة التي كَلَّمْتنا. وهي تستطيع أن تعيننا على إخبار الجمهور عما يجب أن يفعل. والحمد لله". وصاح بالفتاة قائلاً: "أسرعى، قولي لهم أن يكسروا قصباً جافاً. انزلوا في الماء هناك واغطسوا تحت سطحه وتنشقوا بواسطة أسُوقِ القصب".

وعلى الرغم من هلعهم، فعل الأولاد كما قيل لهم. وأراهم تالوس كيفية استعمال القصب. ولهذا كان الجميع مختبئين تحت سطح البركة في أثناء عبور لهيب النار.

وحدث أن الريح التي هبت وأشعلت الحريق حملت معها غيوماً كثيفة سوداء وما هي حتى هبت عاصفة فوق الغابة. وهطل المطر فأطفأ النار واستطاعت الجماعة الخائفة أن تغادر المياه بعد وقت قصير. غير أنهم ظلوا يرتجفون طيلة الليل تحت المطر البارد. وما إن بزغ الفجر حتى أسرع الجميع عائدين إلى القرية... ليجدوا النيران قد أنت عليها. وما إن رأى الأهل الواقفون على الأنقاض أولادهم حتى هتفوا فرحين:

"أولادنا، سالمون. لقد تحوّل حزننا إلى فرح".

وبينما كانوا يقتربون تقدم منهم الزعيم وحيّاهم بلهجة غاضبة، وقال ساخراً: كيف قمت أيتها الفتاة، أنت وهذان الرومانيان، بإخراج الأولاد من الغابة؟ أجيبيني".

أجابته الأمة الرومانية: "لقد أنقذنا الأولاد أيها الزعيم. لولاها لمات الجميع". ولما قالت هذا أخذت تكلم الزعيم بجرأة فيما أخذ القرويون يتجمعون للاستماع إلى الحديث.

وتابعت قولها: "إن سيدي غرث قد نقل إليك كلام هذا الروماني خطأ. ولست أعرف سبب ذلك".

فرد الزعيم الغاضب: "ماذا؟ أنتجاسرين، وأنت أمة، أن تتهمى سيدك". لكن شيئاً لم يثنها عن الكلام. فأضافت:

"في حين يتاجر سيدي بالكهرمان للحصول على الذهب الروماني ويتآمر ليصير زعيماً مكانك حين تُقتل في الهجوم على هؤلاء الرومان أنفسهم، فإن هذين الرجلين خاطرا بحياتهما لإنقاذ الأولاد".

"وحين أرسلت رسلاً لدعوة القبائل للاجتماع معاً والهجوم على رومية، أرسل سيدي آخرين، بعلمي، قائلاً لهم أن يدعوك تمتحن قوة الرومان لوحدهم".

أصغى الزعيم صامتاً إذ كانت الفتاة تتحدث عن تأمر غرث على حياته. ثم طلب إلى تالوس أن يتكلم بالتفصيل عن ملكوت الله الحقيقي وَوَعْدِ المسيح بالخلاص إلى الذين يثقون به. وهذه المرة نقلت الأمة كلامه بصدق وإخلاص، وأخيراً أجاب الزعيم الفاندالي بعد تفكير: "يبدو كلامك صحيحاً أيها الروماني. فلقد فهمت الكثير مما كان يزعجني من قبل. دعني أفكر بما قلت.. والآن عودوا يا شعبي إلى بناء منازلكم من جديد".

ومرّت الأيام والقرويون يعيدون بناء بيوتهم ويزيلون الأثلب والركام. ولكم تعبوا في قطع الأخشاب وجرّها إلى مواقع البناء وترتيبها في أماكنها. ولكن الرجال وضعوا قلوبهم في العمل ولم يبالوا بالتعب. ومدّ تالوس وأورفيوس أيديهما للعمل قدر المستطاع، وسرعان ما تعلّموا التكلم بلغة الناس اللذين عملا معهم. وعند المساء، بعد الانتهاء من العمل اليومي، كان تالوس يجمع عدداً من السكان حول النار ويكلّمهم عن يسوع. أما الزعيم فقد حرر تلك الفتاة المسبية وأطلق لها الحرية لتقوم بترجمة كلام تالوس على أكمل وجه. وفي أثناء العمل كان الحديث يدور في الغالب حول كلام تالوس عن يسوع المسيح رب الخليقة وسيدها.

قال أحدهم ذات يوم وهو يقطع الأخشاب: "إن الروماني (أي تالوس) يعيد كل الفضل في إنقاذ أولادنا من النار إلى إلهه".

فسأله جاره وهو يكسو سطح منزله بالقش: "كثيرون قد أخذوا في هجر آلهتهم القديمة ملتجئين إلى إلهه. والكهنة مستاءون من ذلك. فما رأيك يا سرفوس؟"

أجاب سرفوس: "ما يقوله الرومان حق يا ثورين.. يجب أني أيضاً أسلم حياتي ليسوع المسيح".

في تلك اللحظة بالذات كان رئيس الكهنة يناقش الوضع مع معاونيه. قال لهم بلهجة حازمة جازمة: "هذا الروماني يُبعد الناس عن آلهتنا، وعلينا أن نضع له حداً".

فأيده زملاؤه وواحد منهم قال: "هه، هذا سهل أيها الكاهن الأقدس".

"اترك الأمر لنا" قال آخر، ثم انصرف الجميع.

في تلك الليلة انسلت الأمة المتحررة إلى المأوى الذي كان تالوس وأورفيوس نائمين فيه، وقالت لهما: "تالوس! أورفيوس! استيقظا بسرعة" ثم هزّت تالوس بقوة وهي تقول: "الكهنة أتون ليقتلوك! أسرع!".

فهبّا من النوم بسرعة وجمعا أغراضهما وهرعا إلى النهر حيث دلتهما الفتاة على قارب.

واهتماماً بنجاتها أكثر منه بنجاة نفسه سألها تالوس: "ألست أنت آتية أيضاً؟".

فتساءل أورفيوس: "ألن يشكّوا في أمر مساعدتك لنا؟ فلماذا لا تأتيين معنا؟".

فأجابتهما بثقة ويقين: "يعلم الكهنة أنني مؤمنة مسيحية ولكنهم لا يستطيعون النيل مني. إنني أعتني بالأولاد ولذلك أنا في أمان. ومن الضروري أن ترجعا يوماً لتكرزا بالإنجيل مرة أخرى. والآن انطلقا قبل فوات الفرصة".

ولما شقّا طريقهما عبر النهر تحت جناح الظلام قال تالوس لأورفيوس: "لا أحب الهرب والابتعاد عن أولئك الذين أصبحوا على أبواب الإيمان بيسوع".

قال أورفيوس مصرّاً: "أنت لست هارباً، بل تؤجل عملك إلى وقت أنسب".

وعلى نور القمر الباهت استطاعا أن يوجّها القارب نحو الشاطئ الذي لم يكن بعيداً عن القلعة الرومانية. ولكنهما شوهدا لدى اقترابهما من الضفة الأخرى. وحالما وطئت أقدامهما أرض الشاطئ تقدم منهما اثنان من الحرس الروماني وأمسكاهما واقتاداهما فوراً إلى القلعة دون أي سؤال. وهناك وقفا وجهاً لوجه أمام ضابط ساخط فظّ اندفع يقول لهما بغضب:

"أهذا أنتما أيضاً؟ لقد سبقت وقلت لكمل ما سأفعله بكما إن عدتما".

فبادره تالوس: "أتينا لنحذركم من جاسوس...".

"تقصدون الفاندالي غرث، أليس كذلك؟ لقد ألقينا عليه القبض في الليلة الفائتة بعد أن نزل إلى البر ومعه حمل من الكهرمان. راقبناه مدة طويلة، ولا مجال له للتجسس علينا فيما بعد".

تغيّرت لهجة الضابط وأخذ يصغي إلى تالوس بانتباه وهو يروي ما جرى في قرية الفاندال. وأخيراً قال:

"لعلكما تعلّمتما درساً من هذا. وحسناً أن النار اندلعت وإلا كان علينا أن نحارب جيش الفاندال بها. ما عليكما إلا أن تشكرا إلهكما لأنه أنقذكما من ورطة حرجة وأخرجكما منها بسلام".

وهكذا غادر الاثنان الحصن وعادا إلى القرية التي كان وورث ولاني ينتظران فيها.

قال أورفيوس مبتهجاً: "إذا أنتهينا من أمر غرث، بل إن الضابط أعاد إليّ قيثارتني. لذلك سأعني لك أغنية عسكرية لأروّح عن نفسك في الطريق".

ولكن تالوس المستاء مما آلت إليه الأمور, قال بإلحاح: "ولكني ما زلت أشعر أنه كان من الأفضل أن أبقى وأعمل على هداية الفاندال إلى المسيح. يجب أن أعود إلى هناك سريعاً يا أورفيوس".

ولكن بالرغم من عدم رضاه, اقتنع تالوس أن كل ما حدث يقع ضمن عناية الله الذي يقدر وحده أن يفتح طريق الرجوع أمامه (أمام تالوس). فوصلا القرية وكانا جدّ سعيدين لرؤية رفيقيهما ثانية.

ولما عانق وورث تالوس بحرارة, قال متعجباً: "ها أنتما سالمان, وكنا على يقين من أن الله سيحفظكما".

وكم كان اجتماع أورفيوس بلاني مصدر فرح خاص, إذ بدا حبهما مزهراً. وفي وقت لاحق من ذلك المساء جلسا معاً مع بوران الدبّ الذي لأبدي سروره في حضرة أورفيوس!

وأخيراً غمغم أورفيوس بعد عناء: "كيف لي أن أطلب يدك للزواج, وهذا الدب يلحس ذقني؟".

أجابت لاني معتبطة: "آه, إنه على علم بما تريد قوله وهو بعمله هذا يعلن موافقته".

أما وورث وتالوس فكانا يتحدثان عن الفاندال وعن خلاص يسوع المسيح. وهنا, قال الشيخ:

"لا تفشل يا تالوس. فأنت زرعت بذار الخلاص في قلوب الكثيرين من الفاندال. ولا بد أن يأتي البذار بثمر. ما عليك إلا أن تكون طويل الأناة كسيدك يسوع المسيح فتنتظر وقت الحصاد".

الخدمة العربية للكرزة بالإنجيل هي هيئة إرسالية شغفها نشر كلمة الله في العالم العربي عبر الإنترنت وعبر وسائل إلكترونية أخرى. وتقوم بتوزيع الكتاب المقدس مجاناً للجالية العربية في أميركا الشمالية والقطر العربي وبلدان العالم. بالإضافة إلى مجموعة من الأقراص المضغوطة التي تحتوي على كتب روحية، عظات، تراتيل والكتاب المقدس. لمزيد من المعلومات الرجاء الإتصال بنا.

يحفظكم الله ويملاً حياتكم بالصحة والسعادة والسلام.

أسرة الخدمة العربية للكرزة بالإنجيل